الفصل الثالث

أوصاف النار في القرآن

وصف القرآن العالم الآخر وصفاً حيّاً، وصف النار وأهوالها، وما يلاقيه فيها المجرمون، وصورَ العذاب التي ينتقلون بينها صعداً. ذلك الوصف الفني الذي يسمع فيه الإنسان زفير النار وشهيقها، ويحس حرارتها ولفحها من وراء روعة الوصف. جهنم التي تكاد تَمَيَّزُ من الغيظ الغضبي، التي ترمي بشرر كالقصر، التي تحيط بالكافرين إحاطة السُّوار بالمعصم، كما يعرض القرآن وصف الكافر الذي يُدَعُّ إلى نار جهنم دعّاً، ثم يساق إليها وِرْداً، ويرتقي الوصف إلى هذا البيان بالصور البيانية والمشاهد الفنية، والصور اللونية والحركية، ولا يدخر وسيلة فنية من حوار موح، أو وصف بالكلمة معبرٍ إلا طوَّعَهُ في سبيل الوصف الفني الحي.

١

وصفت النار في القرآن بذكر أجزاء منها، وشبهت بما يراه الإنسان في واقع الحياة وكان اغتراف مادة هذه التشبيهات من الواقع لتكون أوضح في التخيل، ففي سورة المرسلات توصف النار بأنها ظل ذو ثلاث شُعَب لعظمه، وأنه لا مظلّ من حر ذلك اليوم وحرارة النار فيه، ولا مغن لهن من حر لهيبها شيئاً، إنها متقدة يتطاير شررها وكأنه حصون ـ كما قال ابن مسعود ـ وإنه كالإبل السود[1] أو أصول الشجر، إنه منظر رائع يصفه القرآن ويجسده بتشبيه حسي موح. قال تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلّٖ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٖ ۝٣٠ لَّا ظَلِيلٖ وَلَا يُغۡنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ۝٣١ إِنَّهَا

(١) تفسير النسفي ٥/٣٠٩.

تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات: ٣٠ـ٣٣].

وفي وصف القرآن للنار تظهر النار حية شاخصة، تدعو أبناءها الذين يحاولون الإفلات منها، كل ذلك باستعارة معبرة، هذه النار شديدة الحر، تنزع جلدة الرأس، ومكارم الوجه[1]، وأطراف اليدين والرجلين، وتحرق كل شيء خلا الوجه، هذه النار تلتقط المكذبين من بين أهل الحشر، كما يلتقط الطير الحب لأنهم كانوا مكذبين، وعن الحق متولين، يجمعون من حطام الدنيا. هكذا تظهر النار في بيان القرآن مخلوقاً عاقلاً يختار الكافرين ثم يشويهم بلهيبه. قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [المعارج: ١٥ـ١٧].

ولا أجد خيراً مما قاله الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في أثناء الحديث عن وصف النار والأهوال فيها، وما جاء من وصف تفصيلي لذلك اليوم، حين تسائل قائلاً: «فما الداعي إلى هذا الوصف التفصيلي بهذا الشكل؟ إنه أيضاً بيان وإيضاح للناس كلهم، إنه عذاب مادي محسوس ملموس تغمس فيه حواس الكافرين وجسومهم ومشاعرهم، وليس كرباً روحانياً مجرداً على نحو ما يتوهم ويتخيل الذين يحلو لهم ـ في غرور عجيب ـ أن يصعدوا على منبر من الغرور أقاموه من سنوات عمرهم القصير، وتفكيرهم المحدود؛ ليبعثوا منه بقرارهم عن قصة هذا الكون كله وعن حقيقة الحياة والموت، وما بعدها، وحقيقة ما جاء به من أمر الجنة والنار والحساب والعذاب، وكأنهم شركاء لله في تدبير كونه، وليسوا خلقاً مَهيناً من ملايين مخلوقاته، عاشوا لمحة واحدة في عمر الدهر وكانوا قبل ذلك عدماً في طوايا الكون، ثم استحالوا جِيَفاً في باطن الأرض في انتظار الأجل المحتوم واليوم الموعود...»[2] كذلك تَهَوَّسَ مصطفى محمود في كتابه «القرآن محاولة لفهم عصري» حين زعم أن النار في الآخرة ليست كما نتصور بل «إن كل ما جاء عن الجنة والجحيم ما هو

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٢١، وتفسير النسفي ٥/ ٢٥٨.
(٢) «كبرى اليقينيات الكونية» للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي ص: ٣٤٣.

إلا ألوان من ضرب المثال، وألوان من الرمز»[1].

هذه النار وصفت في القرآن حافلة مشخصة بالحياة والحركة، قال تعالى في سورة الملك: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٧ـ٨] هذه الآية التي رأى فيها السيوطي استعارةَ معقولٍ لمحسوس والجامعُ عقلي، في حين رأى فيها الدكتور صبحي الصالح وصفاً وتشخيصاً حياً قال: «مع أن تشخيص جهنم في هذه الآية هو الذي يجعل المشهد حافلاً بالحياة والحركة، فهي مغيظة محنقة، تحاول أن تكظم غيظها حين أُلقي إليها المجرمون، ولكن منظرهم البشع كان أشدَّ من أن تتحمله وتصبر عليه، فتلقتهم بألسنة لهبها وهي تثز وتشهق، وبمهلها وقطرانها وهي تغلي وتفور، حتى كاد صدرها ينفجر حقداً عليهم، ومقتاً لوجوههم السود، فليس في الصورة استعارة معقول لمحسوس فقط، وإنما استعيرت لجهنم شخصية آدمية، لها انفعالات وجدانية، وخلجات عاطفية، فهي تشهق شهيق الباكين، وهي تغضب وتثور، وهي ذات نفس حادة الشعور»[2].

كما أن الرماني رأى في هذه الآية المصورة قريباً من هذا وقال: «إن شهيق جهنم هو صوت فظيع كشهيق الباكي»[3].

وعلى هذا النحو يظهر وصف القرآن حياً متحركاً متناسقاً يبعث في الموصوف الحياة وينفخ فيه الروح فإذا بجهنم تزفر زفرات الغضب والضيق[4]، ويسمع صوت غليانها من بعيد، ذلك ما نراه في سورة الفرقان، حيث قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]. وأورد

(١) «القرآن والتفسير العصري» لعائشة عبد الرحمن ص: ٦١، وانظر في «القرآن محاولة لفهم عصري» لمصطفى محمود.

(٢) «مباحث في علوم القرآن» الدكتور صبحي الصالح ص: ٣٧٤.

(٣) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن تحقيق محمد خلف الله ومحمد زغلول سلوم ص: ٨٠.

(٤) تفسير النسفي ٣/ ٣٦٧، وانظر «الإعجاز البياني للقرآن» لعائشة عبد الرحمن «بنت الشاطىء» ص: ٤٢٦.

الشريف الرضي حول هذا الوصف في الآية الكريمة معنى لطيفاً يبين فيه ما جاء فيها من استعارة موحية «إذا كانت ـ جهنم ـ منهم بمقدار مسافةٍ لو كان بها من يوصف بالرؤية لرآهم. وهذا من لطائف التأويل وغرائب التفسير»[1].

٢ـ طَرائِقُ التعبير الوَصْفي

وتعدد وصف جهنم في القرآن وكثرت طرائقه، ففي سورة المدثر توصف النار وصفاً حسياً حيث ستغمر بحرِّها الإنسان من جهاته جميعها، ووصفت بأنها مهولة حيث تتساءل الآيات ﴿ما أدرك ما سقر﴾. هذا التساؤل يجسد المعنى ويبرزه في الخيال ماثلاً مشاهداً، إنها النار التي تلتقم كل شيء، لواحة للبشر، وكما قال مجاهد: «تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل»[2]. كما أن الوصف القرآني يرسم المشهد أكثر إيحائية حين يشير إلى الزبانية الذين وُكِّلوا بالنار وكان عددهم تسعة عشر. قال تعالى: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: ٢٦ـ٣٠]. ويظهر وصف آخر مكثف وغني يشخص النار في سورة العنكبوت، حيث يكتفي بيان القرآن بأن يشير إلى سعتها بأسلوب كنائي، فجهنم محيطة بالكافرين أنّى كان عددهم، بل هي تفرقهم بحرِّها الشديد، يوم يحيط بهم العذاب ويغطيهم من فوقهم ومن تحت أرجلهم، قال تعالى: ﴿ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3] [العنكبوت: ٥٤ـ٥٥].

هكذا تظهر جهنم في وصف القرآن شاخصة ناطقة، فهي تخاطب ثم تجيب بلسان رطب متحرك وتحاول أن تستزيد من الكفرة «جهنم النهمة المتغيظة التي لا يفلت منها أحد، ولا تشبع بأحد، جهنم التي تدعو من كانوا يُدْعون إلى

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن ص: ١٦٠.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٤٣.
(٣) انظر تفسير النسفي ٤/ ٩٨.

الهدى ويُدبرون. . . جهنم التي ترى المجرمين من بعيد فتغيظ وتفور»[1]. قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠]. وأورد الزمخشري أن «سؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذي يقصد تصوير المعنى في القلب وتثبيته»[2].

ووصفت النار وصفاً آخر يقوم على الاستعارة التي تصفها وتجعلها واضحة الأبعاد تحصر الكافرين في جوفها حصيراً، وأنقل ما جاء في «تلخيص البيان» حول هذا الوصف: ففي هذه الآية ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[3] [الكهف: ٢٩] استعارتان: أولاهما قوله تعالى: ﴿أحاط بهم سرادقها﴾ والسُرادق هو الفُسطاط المحيط بما فيه، فوصف سبحانه النار بالإحاطة والشمول فلا ينجو منها ناج ولا يطلق منها عان، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨] أي حبساً يحصرهم وطولاً يقصرهم، ومثل قوله تعالى: ﴿أحاط بهم سرادقها﴾ وكقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ٨-٩] والمؤصدة: المغلقة المطبقة. . . وثانيهما ﴿وساءت مرتفقاً﴾ والمرتفق: المتكأ، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٧] فلما جاء سبحانه بذكر السُرادق جاء بذكر المرافق ليتشابه الكلام ويتسق النظام»[4].

هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون، وصفها القرآن وصفاً مؤثراً حقيقياً، وصور المجرمين يتجرعون العذاب، لما فرّطوا في الدنيا، وتكاد تكون صورة جهنم أوضح ما تكون في سورة الصافات حيث وُصفتْ جزئيات فيها تُغْني عن وصفها في آيات أخرى وتبرزها شاخصة نشطة، فالشجرة التي تخرج في أصل الجحيم ذات طلع مروِّع، إنه كرؤوس الشياطين للدلالة في الكراهة وقبح

(١) «التصوير الفني» لسيد قطب ص: ٦٥.
(٢) «الكشاف» للزمخشري ٣/ ١٣٣.
(٣) والمؤلف لم يضعها هذا الموضع بل أشار إليها.
(٤) تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي.

المنظر؛ لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم أنه شر محض[1]، وتكتمل الصورة حيث يصف القرآن هؤلاء الكفرة وهم يتناولونها ويملؤون البطون من شجر الزقوم الذي يحرق بطونهم ويعطشهم فلا يسقون إلا بعد مليّ تعذيباً لهم بذلك العطش، ثم يسقون ما هو أحر، وهو الشراب المشوب بالحميم[1] . قال تعالى بعد أن وصف نعيم المؤمنين: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٢-٦٥].

على هذا النحو يصف القرآن جهنم وصفاً حيّاً شاخصاً، يقرّب صورتها من الأذهان ـ وإن كان التصور غير الحقيقة ـ ووصفاً يستخدم الصورة البيانية تارة، والمشاهد السريعة تارة أخرى. كل ذلك تحت قاعدة التخييل الكبرى التي يستثمرها القرآن للإيحاء والإيماء.

٣ـ وَصْفُ أهلِ جَهَنَّم

صور القرآن الكريم أهل جهنم من الكافرين الكاذبين والضالين الظالمين تصويراً دقيقاً، وشخّص مواقفهم في ذلك اليوم الذي يساقون فيه إلى جهنم تشخيصاً حياً؛ وصفهم حين يساقون إلى جهنم وِرْداً، أو زرقاً وشخّصهم حين يُحضرون حولها جثياً، ثم تطلق أسماعهم وأبصارهم وجلودهم شواهد عليهم. إن الصور البيانية والحركية والمشاهد الفنية ترسم لوحة واسعة غنية العناصر، متحركة حيّة لأولئك العصاة بأسلوب فني يمزج بين الوصف والتصوير، وتبدأ الصورة منذ اللحظة الأولى حين تبدو وجوه الكافرين، وعيونهم حيث يُعْرَفون «بسواد وجوههم وزرقة عيونهم»[2] ثم تكتمل الصورة حين «يجمع الزبانية ناحية المجرم مع قدميه ويلقونه في النار»[3] بطريق هذه الصورة الفنية تتجسد حال الكافر، ووقفة الظالم. قال تعالى: ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ

(١) تفسير النسفي ٤/ ٢٦٧، وانظر «حسن البيان» لمحيي الدين الخاني ص: ٢٥٢.
(٢) تفسير النسفي ٥/ ١٣٠.
(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٧٥.

﴿بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

كما أن سورة إبراهيم أوردت وصفاً حياً للكافرين، حيث رسمت إطار الصورة وأظهر وصف القرآن عناصرها بارزة، وكان الموقف جليلاً إذ أُبرزت الخلائق لله الواحد القهار، ثم كان المجرمون يومئذ مقرنين بالأصفاد، ولكن أسلوب القرآن الوصفي يستخدم الفعل «ترى» الذي يجعل السامع أمام المشهد، واقفاً يتملاه ويتفاعل معه ـ ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ . . .﴾ [إبراهيم: ٤٩] ـ وهو يرى المجرمين وقد كُبِّلوا بالأغلال[١] فلا حراك. قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: ٤٨ـ٤٩].

وأشار الدكتور صبحي الصالح إلى «أن أبرز المشاهد التي رسمتها سورة «إبراهيم» مواقف المكذبين المعاندين للأنبياء، وصور المجرمين في جهنم والمتقين في الجنات، وسياط التبكيت والتأنيب تصب على الإنسان الظلوم الكفّار الذي يتعامى عن صفحات الكون الجميلة وهي معروضة على الأنظار»[٢].

ويصل البيان القرآني في الوصف إلى ذروة التشخيص حين يُجري حواراً صاعداً بين أجزاء من الإنسان وبين ذاته، فهذا الإنسان يستغرب، كيف يشهد عليه جلده وبصره وسمعه، وهو إنما كان يغذيه، ويعتني به، فتعاوده هذه الأجزاء الجامدة النطق وتفوه بكلمات تقرع الأذن ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [فصلت: ٢١].

هذه الصورة البيانية تتسامى في وصف القرآن حين تصف الكافرين وقد صاروا بحضرة جهنم[٣] قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

وفي سورة النور وصف آخر لا يبتعد عن هذا حيث يشير إلى شهادة الأيدي

(١) تفسير النسفي ٣/ ١٠.
(٢) «مباحث في علوم القرآن» ص: ٢٥٦.
(٣) تفسير النسفي ٤/ ٣٧٤.

والأرجل، مضافاً إليهما العنصر الزماني. قال تعالى في وصف جهنم: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ [النور: ٢٤] وفي وصف جهنم تتجلى لنا رهبة ذلك اليوم كذلك وجلال الرب وكبرياء الألوهية.

ثم يساق هؤلاء إلى جهنم سوق الأنعام العطاش إلى الماء[١]، قال تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦] فالوصف القرآني يستخدم الصورة البيانية استخداماً حكيماً، فقد ذكرت كلمة (نسوق) وهي للأنعام ـ والمجرمون أضل من الأنعام ـ ثم جاءت كلمة وِرْداً تبين حالة هؤلاء الضالين مما أكسب الصورة حياة وواقعية، وانسجاماً فنياً.

وفي سبيل وصف أهل جهنم يلتقط القرآن مشهداً مصوراً لهؤلاء الكفرة، وهم على أبواب جهنم إذ تفاجئهم أسماعهم وجلودهم وأبصارهم فتنقلب أفواهاً ناطقة على ما اقترف بها الكافرون من أعمال.

ويصل موكب العصاة المنكرين، والشياطين الأفاكين وإذا أولئك كلهم «جاثون على ركبهم غير مشاة على أقدامهم»[٢] لشدة هولهم وفزعهم، ثم ينتزع من كل شيعة منهم أشدهم عتياً ليلقى أمام الجمع المحتشد في نار جهنم. صورة حسية حية، تترك للخيال أن يتملاها ويرسم أبعادها، ويغنيها بما يستطيع استيحاءه، قال تعالى. ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٨ـ٦٩].

ويعطي العنصر الزماني الصورة حيوية خاصة، فالمجرمون قبل أن يُلْقَوا في النار يصفهم بيان القرآن وهم يرونها من بعيد، وقد قادهم حدَسُهم إلى أنهم سيدخولنها؛ لما يعرفون من أعمالهم، ولكن الظن ينقلب إلى حقيقة حين يرون أنْ لا محيص عنها ولا ما يصرف أهوالها عنهم. هذا ما جاء في سورة الكهف، قال تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

---

(١) تفسير النسفي ٥/ ١٣٠.
(٢) تفسير النسفي ٣/ ١٧٤.

ويستمر وصف القرآن ليرسم صورة لهؤلاء الكفرة الذين هم في سبيلهم إلى جهنم وقد تغشاهم العذاب كما يغشى الليل النهار، ثم انطلق من تحت أرجلهم، فهم محاطون بظُلَله، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥] وقد وقف الشريف الرضي عند هذه الآية وقفة متأملة في صورتها البيانية حيث أشار إلى أن العذاب يَلُفُّ هؤلاء لفّاً، وتجعل النار لهم أمهدة مفترشة وأغطية مشتملة، قال: «فكأنه تعالى جعل لهم من النار أمهدة مفترشة، وأغطية مشتملة فيكون استظلالهم بحرّها، كاستقرارهم على جمرها»[1].

ومن أروع ما وصف به الكافرون وهم في جهنم تناولهم من شجرة الزقوم تناولاً رعيباً ـ وما هو بالطعام ـ ثم شربهم ماءً حاراً يقطع الأمعاء، ولم يكتف القرآن بذلك بل يعرض الوصف بقالب تشبيه بليغ؛ فهو في إقبالهم على هذا الماء كالإبل العِطاش في إقبالها على الماء، تغب الماء غبّة واحدة.. وقيل كالإبل المريضة تمصّ الماء مصّاً[2]، كناية عن تألمها أثناء شربه، وهؤلاء المجرمون يشربون ماء ساخناً، فيحرق جلدة أفواههم ﴿بئس الشراب﴾ [الكهف: ٢٩] هذا الوصف الفني يبعث على الرهبة حيث يشخص هول هؤلاء ويعرض مشاهد من حال المعرضين يوم القيامة، ذلك في سورة الواقعة، حيث قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١ـ٥٦].

وفي سورة الدخان تظهر شجرة الزقوم، طعام الأثيم، بصورة أوضح عندما يشبهها وصف القرآن بالمُهْلِ الذي يغلي في البطون، قال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴾[3] [الدخان: ٤٣ـ٤٦].

---

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ص: ٤٣ ـ ٤٤.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٣١٦.
(٣) تفسير الكشاف للزمخشري ج ٣/ ٩١.

وصف القرآن الكريم أهل جهنم من الكافرين الكاذبين، والضالين الظالمين، تصويراً دقيقاً حياً، وشخّص مواقفهم في ذلك اليوم الذي يساقون فيه إلى جهنم، وصفهم حين يدفعون وِرْداً، أو زُرْقاً، وشخّصهم حين يُحضرون حول جهنم جثياً، ثم تنطلق أسماعهم وأبصارهم وجلودهم شواهد عليهم. إن الصورة البيانية والحركية والمشاهد الفنية ترسم هذه اللوحة الوسيعة الغنية العناصر، متحركة حيّة لأولئك العصاة، بأسلوب يمزج بين الوصف والتصوير، بين الصورة والمشهد. ويبدأ عرض الصورة منذ اللحظة الأولى حين تبدو أمارات الفزع والهلع.

وتكون الصورة السمعية التي يستخدمها القرآن ليتمم إطار الوصف مساعدة في تكامل الوصف الفني في أرفع لون من التناسق البلاغي؛ ففي سورة فاطر تظهر الصورة السمعية تجسد الكافرين في جهنم ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٦ـ٣٧].

وقد وقف سيد قطب وقفة طويلة عند كلمة يصطرخون، وأشار إلى قدرتها الوصفية والتصويرية حيث «يُخَيَّلُ إليك جرسها الغليظ، غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان، المنبعث من حناجر مكثفة بالأصوات الخشنة، كما تلقي إليك ظلَّ الإهمال، لهذا الاصطراخ الذي لا يجد من يهتم به أويلبيه، وتلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ الذي هم فيه يصطرخون»[1].

لا يقتصر القرآن في وصفه على أسلوب واحد، فهو لا يقصّر في استخدام الكلمة المصورة المعبرة، التي تسهم برسم الصورة الفنية؛ ففي سورة الطور نرى أنه يصف الكافرين وهم يُدفعون إلى جهنم مهانين، وتكون الكلمة الملائمة الناقلة لتلك الصورة المزرية التي يعيشها الكافرون كلمة «دعّاً»، «وإنما

(١) «التصوير الفني» سيد قطب ص: ٧٩. وسيد قطب: كاتب ومفكر إسلامي له مؤلفات عديدة من أبرزها «في ظلال القرآن».

الدّعُّ سوقٌ بقسوة وقهر ونهر وغلظة»[1] وفسره ابن الأثير في النهاية «بالطرد والدفع»[1] ولا غرابة أن يدفع هؤلاء ويساقون.. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور: ١٣] وأورد النسفي في تفسير هذه الآية المصورة أن الدَّعَّ هو الدفع العنيف، وذلك أن خزنة النار يَغُلُّون أيدي الكافرين إلى أعناقهم ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ويدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم وزخّاً في أقفيتهم فيقال لهم: ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾[2] [الطور: ١٤].

وقد يكون الوصف القرآني مكثفاً لكنه معبر موح؛ ففي سورة الواقعة نلحظ أن أصحاب الشمال غارقون في رياح ساخنة، وهواء حار، ومياه متقدة، ودخان أسود كثيف، ينبعث من حميم جهنم، حتى منظره مخيف مرعب[3]، من هذه الصورة الجزئية يرتسم المشهد حياً شاخصاً تتملاه العين، وتسمع زفرات المعذبين فيه الأذن، ويسبح في عالم واسع الخيالُ المحلّق، قال تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١ـ٤٤].

٤ـ صُورٌ مِنَ العذابِ

وصف الكافر وهو يتجرع غصص العذاب في جهنم وصفاً مؤثراً، حيث استخدم البيان القرآني وسائل الوصف كلها، من صور بيانية أو حركية، أو مشاهد فنية شاخصة ترسم صورة عريضة، لأهوال جهنم، والإنسان الذي يحتمي كؤوس حميمها، وذلك بسبيل وعظه من نحو، وبيان حقيقة ذلك الموقف وهوله من نحو آخر، وتبدأ الآيات الكريمة في وصف الإنسان الكافر الذي سيُلقى في جهنم منذ اللحظة الأولى، وصفاً شاخصاً، فالكافر لا يقوى في ذلك اليوم على التحكم بِشِرَاكِ نعله، وصف القرآن عجزه وضعفه بأسلوب

(١) الإعجاز البياني للقرآن للدكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطىء» ص: ٤٣٢ ـ ٤٣٣.
(٢) تفسير النسفي ٢/٩٨.
(٣) تفسير ابن كثير ٤/٢٩٤.

كنائي، فهو كالمادة الجامدة المَهينة يعتل[1]، وينقل ليقذف وسط جهنم، ثم يصب من فوق رأسه عذاب الحميم؛ وليكتمل المشهد وتسير الحياة دافقة بين أعطافه، يقال له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩]. بمثل هذا التشخيص الموحي ترى آيات الذكر الحكيم تصف أهوال جهنم وعذاب النار الذي يلقاه الكافر يوم ذاك.

وفي سورة الحاقة تقترب الصورة التي وصف بها القرآن مشهد عذاب الكافرين من سابقتها وإن كانت أوسع مدى، وأكثر تفصيلاً، فتصف الآيات الذي يؤتى كتابه بشماله، ولا يدري كيف يواجه ربه، وقد ذهبت عنه أسباب قوته وسلطانه كلها ويبدأ المشهد المتكامل إذْ «يأمر الله الزبانية أن يأخذوه ـ أي الكافر ـ عنفاً من الحشر فتوضع الأغلال في عنقه، ثم تورده إلى جهنم، فتصليه إياها ـ أي تغمره فيها»[2]، ثم يقيد بسلاسل طويلة ويسلك فيها. قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة: ٣٠ـ٣٧].

وفي وسط هذا الانفعال يرسخ الوصف الفكرة الدينية، فهذا الكافر لم يكن مؤمناً ولا محسناً، فليس له اليوم في الآخرة سوى جهنم، وما طعامه؟ إنه من غسلين «وقال الربيع والضحاك: هو شجرة في جهنم»[3] وهو شر طعام أهل النار. هذا هو مشهد العذاب في نار جهنم يظهر وصفه دقيقاً فيكسبه جمالاً وحيوية.

ويتابع الوصف القرآني رسم مشهد آخر للكافرين، مشهد تظهر فيه سرابيلهم من قطران مشتعل، وتغشى وجوههم النار اللافحة، وهاهو ذا الكافر المجرم مُقَرَّنٌ في القيود والأغلال، وقد ارتدى قُمُصاً قطرانية مشتعلة ذات رائحة نتنة[4]

(١) تفسير الكشاف للزمخشري ٣/ ٩١.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٤١٦.
(٣) تفسير ابن كثير ٤/ ٤١٦.
(٤) تفسير النسفي ٣/ ١٠ وأورد معنى آخر للقطران: بأنه نحاس مذاب حار.

وحشية اللون.. وقد أورد البيضاوي في معرض تفسيره لهذه الصورة قوله: «يحتمل أن يكون ذلك تمثيلاً لما يحاط بجوهر النفس من الملكات الرديئة، فيجلب إليها أنواعاً من الغموم والآلام»[1] قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٤٩-٥١].

وترتسم الصورة أكثر وضوحاً في سورة الحج حيث يعتمد التجسيد هنا على عنصرين: العنصر الأول عنصر بياني؛ فالنار تقطع ثياباً يرتديها الكافرون، ثم يصب من فوقها حميم حار يصهر ما في بطونهم وجلودهم ويذيب داخلها وخارجها، قال تعالى: ﴿لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩-٢٢]. وجاء في «تلخيص البيان في مجازات القرآن»: «وهذه استعارة، والمراد أن النار تشتمل عليهم اشتمال الملابس على الأبدان حتى لا يسلم فيها عضو من أعضائهم، ولا يغيب عنها شيء من أجسامهم»[2].

وبسبيل الوصف الحي تتعمق الصورة إذ يشير وصف القرآن إلى المقامع الحديدية والسياط المختصة بالكفرة يضربون بها، وقد أورد الإمام النسفي في معرض حديثه عن هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى كأنما «يقدر لهم نيراناً على مقادير جثثهم تشتمل عليهم، كما تقطع الثياب الملبوسة، واختير لفظ الماضي لأنه كائن لا محالة»[3] وأورد النسفي معنى الخروج من النار عن الحسن «ومعنى الخروج: أن النار تضربهم بلهبها فتلقيهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضُربوا بالمقامع فَهَوَوْا فيها سبعين خريفاً»[4].

والعنصر الثاني في هذه الصورة التي رسمها وصف القرآن هو عنصر الزمان

(١) تفسير البيضاوي ص: ٣٧٠.
(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ص: ١٥.
(٣) تفسير النسفي ٣/ ٢٦٧.
(٤) تفسير النسفي ٣/ ٢٦٨ وتفسير البيضاوي ص: ٤٧٠.

الذي يستغرق هؤلاء إلى أبد الآباد ممزوجاً بالألم النفسي، فلا أمل في الخروج ﴿ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا مِنۡ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا ﴾ [الحج: ٢٢] ويقال لهم: ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [الحج: ٢٢] المنتشر العظيم الإهلاك. وأظهر السيد قطب إعجابه بجمال هذه الصورة الفنية حين أشار إلى أن الإطالة في الوصف تتكون بتفصيل الحركات وتعددها وبالتكرار الذي تُخَيِّلُه الألفاظ. يقول: «فهذا مشهد عنيف، صاخب حافل بالحركة المتكررة، هذه قباب من النار تقطع وتفصّل، وهذا حميم يصب من فوق الرؤوس، يصهر به ما في البطون والجلود، وهذه مقامع من حديد، وهذا هو العذاب يشتد ويتجاوز الطاقة، فيهب «الذين كفروا» من الوهج والحميم، والعذاب الأليم، يهمون بالخروج من هذا «الغم» وهاهم أولاء.. يردون بعنف ﴿ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [الحج: ٢٢]، ويظل الخيال يكرر هذه الصورة من أولى حلقاتها إلى أخيرتها، حتى يصل إلى حلقة الخروج ثم الرد العنيف ليبدأ الوصف من جديد»[1].

وهكذا وقف السيد قطب وقفة طويلة في «التصوير الفني» عند حديثه عن مشاهد العذاب في يوم القيامة؛ حيث قال: «ومن بين المشاهد التي يطول عرضها ـ أحياناً ـ مشاهد العذاب في يوم القيامة، ففيه تشخيص المشهد كأنه حاضر، وتنسيق أجزائه كأنه مشهود يطول عرضه ليلمس الحس ويوقظ الخيال، ويتسرب الخوف والتأثر إلى أعماق النفس وقرارة الوجدان». ولإطالة الوصف يعرض سيد قطب نماذج منها:

آـ مرة تكون الإطالة باللفظ المخيل للتكرار مثل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ ﴾ [النساء: ٥٦] فالخيال هنا يظل يستعرض المشهد المروع، ويكرر العملية المفزعة، وكلما زاد فزعاً وارتياعاً زاد إقبالاً على التكرار ذلك أن الهول يشدّ إليه النفس، ويوثقها، كلما همت هذه بالفرار.

ب ـ ومرة تكون الإطالة بالنسق اللفظي كالتفصيل بعد الإجمال من عرض

(١) «التصوير الفني» سيد قطب ص: ١١٥.

الأجزاء بالتفصيل مثل ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[1] [التوبة: ٣٤ـ٣٥].

كثر الحديث في القرآن عن طعام أهل النار ووصف في سورة عديدة؛ ففي سورة الصافات يرتسم مشهد متكامل، وصورة فنية تعتمد على عناصر البيان حيث يبدأ الوصف بشجرة الزقوم التي يكون تمرها نزل أهل النار، والتي هي محنة وعذاب للظالمين، الذين تساءلوا كيف لا تحرق النار الشجر؟ إن هذه الشجرة كما أورد البيضاوي منبتها في قعر جهنم؛ لها طلع متناه في القبح والهول، إنه يشبه رؤوس الشياطين، وصورتهم تخيلية[2] وتتكامل الصورة عندما يضاف عنصر جديد هو استقاء هؤلاء الذين أكلوا من شجرة الزقوم، فيقدم لهم الشراب من غساق أو صديد مشوب بماء حميم يقطّع الأمعاء.

ويتكرر المشهد عينه في سورة الدخان إذ يصف القرآن ما يلقاه الكافر الأثيم من ذل وهوان، ذلك الذي يلتقم شجرة الزقوم التي تشبه المهل وهو دردي الزيت الذي يمهّل في النار حتى يذوب، ويغلي غلياناً يشبه غلي الحميم في بطن ذلك الأثيم، وتتسع دائرة الوصف حين يُقذف الكافر وسط النار ليذوق مس سقر. وأشار النسفي عند حديثه عن قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٣ـ٤٩] أشار إلى أن «المصبوب هو الحميم لا عذابه، إلا أنه إذا صب عليه الحميم؛ فقد صبّ عليه عذابه وشدّته، وصب العذاب

(١) «التصوير الفني» سيد قطب ص: ١١٣ ـ ١١٤.

(٢) قيل الشياطين: حيات هائلة قبيحة المنظر لها أعراف. النسفي: ٤/ ٢٦٧. والأصح ما نقله ابن كثير عن وهب بن منبه من قوله: إنما شبهها برؤوس الشياطين ـ وإن لم تكن معروفة عند المخاطبين ـ لأنه قد استقر في النفوس أن الشياطين قبيحة المنظر. ابن كثير ٤/ ١٢.

استعارة»[1] وأورد الزمخشري في «الكشاف» مثل هذا «فالحميم هو المصبوب لا عذابه ليكون أهول وأهيب»[2]. وأما السيد قطب فقد رأى في هذه الآية الكريمة التي تصور ما يلقاه الكافر مشهداً حياً من مشاهد يوم القيامة، وعرض هذا المشهد عرضاً فنياً[3].

ويبرز عنصر فني ـ غير عنصري البيان والمشاهد ـ عنصر ثالث إنساني يجعل الصورة أكثر تجسيداً وحيوية، يجسد جانباً من حياتهم الدنيا التي كانوا فيها، يتبعون آباءهم، ويهرعون على آثارهم، وإن الجمع بين العذاب الحاضر القائمة صورته في الأذهان، وبين الماضي السحيق يوم كان المجرمون سادرين في غوايتهم، هذا الجمع بين العنصرين المتباعدين، والموقفين المتناقضين: موقف الخزي في النار، ومنظر الاستكبار عن الحق في الدنيا، بين عذاب مقيم، وبين عزٍّ وجاه عريض. بين هذين تنسج خيوط الصورة، وتبرز حية قائمة في الذهن. قال تعالى بعد أن وصف نعيم الصالحين: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٢ـ٧٠].

ويبرز العنصر الزمني في الوصف الفني حين تصف سورة غافر آل فرعون، وهم يردون ويعرضون على العذاب صباحاً ومساء، وهم بين هذين حتى يوم القيامة، حين تقوم الساعة، قال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] وتستخدم الاستعارة في «يوم القيامة» استخداماً حكيماً لتضمن للوصف القدرة على التخييل والتشخيص.

وفي النار يلقى هؤلاء أشد العذاب؛ ففي سورة الزمر يبين تعالى أن أطباقاً

---

(١) تفسير النسفي ٥/ ٦.
(٢) «الكشاف» للزمخشري ٣/ ٩١.
(٣) «في ظلال القرآن» لسيد قطب ٢٥/ ١٢٠.

من النار تحيط بهم من أعلى ومن أسفل منهم[1]، وهم بين هذه وتلك يصطرخون، ويستغيثون، ويظهر العذاب في هذا التصوير المشخص مخيفاً رعيباً، قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

وفي سورة القمر يوصف المجرمون وصفاً مروعاً؛ فهم ضائعون كما كانوا في دنياهم، وهم مهملون، ونقلهم ضياع دنياهم إلى النار وسَعْرِها يجرون على وجوههم في الدار كناية عن احتقارهم وإهانتهم ويقال لهم وهم في هذا الجو النفسي: «ذوقوا حر النار وألمها، ولتسقركم بلهيبها»[2] قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر: ٤٧ـ٤٨].

كذلك نلحظ العنصر الصوتي الذي يكمل الصورة الفنية فالصوت المكتوم الممزوج بزفرات الألم يعطي للنص حيوية وواقعية، وإن زفرات الألم تجرّ وراءها ذكريات مضت حين كان الكافر لا يستمع إلى الهدى فها هو ذا الآن مأخوذ بالهول والفزع وهو لا يسمع أيضاً، قال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٠].

وفي سورة الزخرف يصف بيان القرآن المجرمينَ وهم يتجرعون غصص العذاب، دون توقف، والعذاب الذي يرافقه اليأس من الفرج والحيرة أشد وقيعة على النفس من غيره، فهؤلاء خالدون في العذاب، مبلسون «آيسون من الفرج متحيّرون»[3] وهكذا يعد العنصر الزمني في حياة الصورة ويضمن لها الخلود في الأذهان، والحيوية المتجددة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٤ـ٧٥].

وهكذا يكون الوصف الذي يكسب الصورة الخلود والحياة وهما اللذان

---

(١) تفسير النسفي ٣/ ٣١٦ وتفسير البيضاوي ص: ٦٣٨.
(٢) تفسير البيضاوي ص: ٧٢٣.
(٣) تفسير النسفي ٤/ ٤٢٤.

يجعلان الأدباء واقفين في حرابها معجبين بل ساجدين سجدة الشعراء.

وهكذا جاءت صورة القرآن تحمل ألواناً من التعبير، مشحونة بالمعاني، والخلجات النفسية المختلفة، وتجري على أساليب العرب في كلامهم، مراعية لطبائعهم، متصلة بوجداناتهم، معنية بالانفعالات والنزعات، يجمع هذا كله أسلوب بلغ من فن القول أَوْجَهُ[1]، فكان بلسان عربي مبين.

«وهذه الأشياء التي تتصل باليوم الآخر في جنته وجحيمه، وجزائه وعذابه، ومظاهره المختلفة من مشاهد النعيم والعذاب وأوصافهما، وكل ما جاء متصلاً بها من الأسماء والأفعال والصفات، اختلف فيها العلماء في دراسات القرآن، فظن بعضهم حقيقتها على مثال ما يرونه في الحياة الدنيا ولكنها أمثلة فائقة منها، وعلى أية حال فهي ـ عندهم ـ موجودة في صور مادية حسب ما يروي القرآن ويصور، وخالف هؤلاء قوم آخرون فجردوا هذه الصور إلى معان وصور ذهنية، وتعبير عن طريق إثارة الخيال، ومحاولة التأثير في النفس عن طريق الحس جملة أو فرادى، والصور القرآنية تعمل على ابتداع صور ربطية لها من هذه المفردات الحسيّة، لا يقصد فيها التحديد بقدر ما يقصد التأثير»[2].

---

(١) أثر القرآن في تطور النقد العربي، الدكتور محمد زغلول سلام ص: ١٠٤.
(٢) المرجع السابق عينه ص: ١١٩.